

لا علاقة للهجة الجزائرية بالفرنسية والعربية أقرب إلى اللسان الجزائري

الباحث مهدي براشد: الحراك الجزائري خلقته لغة الناس والفصحى وقفت عاجزة



مهدي براشد: الجدل الجزائري الدائر بين اللغة العامية واللغة الفرنسية في الجزائر وراءه فريقان أيديولوجيان

لمأذا لم تتفاعل النخب بشكل قوي مع لغة الحراك هذه يرد براشد على هذا التساؤل بالقول "المشكلة في أن النخبة التي التصقت بالرسمي بشكل وثيق بل وكانت بالنسبة إلى البعض أداة الرسمي في تنميط ثقافة المجتمع ولغته في معيارية لا تقبل التنوع وتخاف منه هي التي كرسست عمى هذه النخبة والسلطة معها عن الأغاني التي كان يصدر بها أنصار 'المولودية' واتحاد العاصمة والحرش وغيرها من الفرق الكروية الأخرى، على ما كان في هذه الأغاني من خطاب سياسي واقتصادي واجتماعي يعبر بصدق عن واقع عموم الجزائريين، وموقف تجاه السلطة ينبيء بشيء ما كان سيحدث ولم تنتبه إليه".

دلالات ومعان

يحلل براشد بعض مقولات الحراك وبعض أغانيه ومفرداته ويديرها ضمن سياقات تاريخية، فأغان كـ"لا كازا دل المرادية" و"بابور اللوح"، التي ارتكبت السلطة في 2018، ثم ما أفككت أن تغاضت عنها مثلما عميت عنها النخبة، مؤشراً على أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم قد بلغت مداها، وأنه لم يعد ممكناً أن تستمر بالشكل الذي هي عليه،

مسألة اللغة بصفتها

أحد أهم مكونات الهوية بالنسبة إلى أي شعب، كانت ومازالت مظهراً وحقلًا للجدل الدوغمائي والانفعالي

فلا أحد انتبه "أن الأشياء قد بلغت مداها الأقصى، إلى أن كانت حادثة القاعة البيضاوية حيث أعلن ترشيح بوتفليقة لعودة خامسة (القطرة التي أفاضت الكاس)، في هذا الحين ظهر مصطلحا 'الكاشير' و'الكاشيريسم' اللذان سيزداد تداولهما بعد الحراك ويصل حتى إلى المخابر اللغوية الأجنبية".

كذلك الأمر مع لفظة "كاشير" أين انتشرت كالكاشيريسم في آتون الحراك، يقول عنها براشد "تكرست بعد فيديو لشاب حضر 'مهرجان' القاعة البيضاوية يشكو أنه لم يجد قطعة 'الكاشير' في ساندويش الذي أعطي له ولم يحصل على 500 دج نظير حضوره ولملء القاعة البيضاوية".

العامية الدزيرية (الجزائرية) إلى غاية السبعينات كانت تحتوي على 10 بالمئة على أكثر تقدير من الألفاظ الفرنسية

هذه الجالية مازالت مرتبطة بالوطن الجزائر ولكنها في الوقت نفسه تعمل على ربط عائلاتها ومعارفها بفرنسا. كل هذه الأمور تقول إن التخلص من اللغة الفرنسية في التعامل الرسمي صعب إن لم يكن صعباً جداً ويحتاج إلى عمل طويل المدى. أما على مستوى التعامل اليومي، فإن تعاطي الجزائريين مع الفرنسية تم بشكل أصبحت به هذه اللغة تنطع بطبيعة جزائرية محضة. الفرنسية لدى الجزائريين ليست فرنسية فرنسا".

لغة الحراك

كان من حسنات الحراك الشعبي في الجزائر حسب براشد وهو يفكك لغته أنه "أبان عن الواقع اللغوي للجزائريين، بعيداً عن أحكام القيمة التي تتحكم فيها وتحدها الانتماءات الفكرية والأيديولوجية ومسارب أخرى، هو واقع موجود ويفرض وجوده علينا شيئاً الاعتراف به أو لم نشأ"، وقد أكد الحراك على "المقولة اللسانية المعروفة التي لا يريد أن يسلم بها البعض أن الواقع بين اللغة واللهجة هو أن الأولي لها سلطة تكفل لها أدوات فرضها وحمايتها والدفاع عنها، والثانية: ليس لها ذلك". لذلك في اللحظة التي استعاد فيه الشعب الفضاء العام وأسقط السلطة التي كانت تحتكره تحولت "اللغة العامية" أو "الدارجة" من "الهامش" غير المعترف به إلى المركز، وأصبحت هي "اللغة الرسمية" للحراك.

أهم ما سجله من ملاحظات خلال الحراك الشعبي يقول "إن الشعارات والهتافات التي رفعها الجزائريون خلال مظاهراتهم طغت عليها اللغة العامية (الدارجة)، ولم تستطع الشعارات والهتافات التي رفعت باللغة "الرسمية" العربية أو الفرنسية أن تصمد أمامها. حتى المنتوج الإبداعي في الأغاني كان منتوجاً شعبياً. ولم يظهر، إلى حد الساعة، منتوج ثقافي أو فني باللغة الرسمية فرنسية أو عربية".

يتردد أنه يقول دوماً عن المشاركة إنهم لا يفهمونها عندما نتحدث معهم، يقول "إن لغة الجزائريين، والمغاربة على العموم، أداء من الإداءات العربية، بل وأداء ينحت من قاموس موغل في القدم، فيه ما لم يعد مستخدماً حتى في دول المشرق. وإن كان هناك من يحاول أن يمرر فكرة أن اللغة المغربية ذات جذور "بونيكية" (هي لغة سامية مندثرة، تحدث بها سكان شمال أفريقيا وجزر البحر المتوسط وتعتبر منحدره من الفينيقية)، على ادعاء الأستاذ عبدو اليمام (باحث جزائري في اللسانيات)، غير أنه ادعاء يسهل نحضه، لأنه استشهد بكلمات بونيكية في العامية المغربية هي موجودة في العربية على اعتبار أن كلا اللغتين سامية، بل ونجد بعد الأمثلة المستشهد بها حتى في العربية والأرامية. فلماذا لا تكون هذه الأمثلة عربية وليست بونيكية".

ويعطي براشد أمثلة عن ذلك في "غاية السبعينات كان الجزائريون يقولون للطرفة 'فطيسه'، ولشريط القفا، ويقولون لزاوية البيت 'القنط' أي قنط أي ضاق، ومازالوا يقولون لراس الخروف بعد أن يحرق 'بوزلوف' لأنهم يزفونه من النار، أي يقربونه، ومازالوا يقولون لرائحة الطعام المحترق 'شيباط' وللفضلة 'شيباط' من شيباط القدر أي معلق به، ويقولون 'الطابونة' للموقد من 'طين النار' إذا دفنها في الأرض موقداً. والأمثلة كثيرة على ذلك، وهو ما يفسر حسبي "أن الأمر يتعلق بحركة الشعر الشعبي التي كانت جد مزهرة في الدول المغربية والجزائر واحدة منها، وكان هذا الشعر مثلاً يحتذى به ينحت منه الجزائريون لغتهم".

استبدال الفرنسية بالإنجليزية

عما تردد مؤخراً عن توجه السلطة في الجزائر إلى استبدال اللغة الفرنسية باللغة الإنكليزية يرى براشد أن هذا "الطرح جاء في ظرف سياسي تعيشه الجزائر منذ 22 فبراير 2019، وهو يخضع لاعتبارات سياسية تريد أن توهم بأن السلطة الجديدة/القديمة تريد أن تحدث قطيعة مع الهمينة الفرنسية سياسياً واقتصادياً عن طريق القطيعة الثقافية واللغوية، على اعتبار أن الاستعداد الذي وصلت إليه الدولة سببه هذه الهمينة. اعتقد أنها محاولة استغلال العاطفة الجماعية للجزائريين المعادية لفرنسا الاستعمارية لتحقيق نوع من المصداقية والثقة لدى الشارع الجزائري المنتفض المطالب بذهاب النظام القديم والسلطة التي يتمظهر فيها".

يبسود الطرح حسبه إلى نوع من "الرجالية غير خاضع لإرادة مسبقة في هذا الاتجاه حتى تكون هناك فعلا دراسة وتفكير في الموضوع بشكل جدي والتوجه إلى الإنكليزية كلغة أجنبية أولى، على ما في الفكرة من حقيقة أن البحث العلمي

تجاوز اللغة الفرنسية، فمثل هذه المواضيع وإن كان طرحها يخضع لاعتبارات عاطفية، فعلياً معالجة بعيداً عن هذه الأخيرة، وتعامل معها من منطلق مناقشة الواقع بكل تجرد وعقلانية. والواقع يقول إن اللغة الفرنسية، وعلى مدار 132 سنة من الاحتلال الفرنسي، وتكريسها لقرابة 60 سنة، ثم تغلغها في المجتمع كما في دول اليب مؤسسات الدولة، أصبحت لغة نالثة للجزائريين بعد العربية بكل أدائها الهمينية المختلفة والأمازيغية بكل أدائها الهمينية أيضاً، وفي كثير من الأحيان تكون هي اللغة الأولى، في المجالات الرسمية السياسية والاقتصادية، وفي مجال الثقافة والفن، وحتى المجال العلمي التقني. ناهيك عن أن الاتصال مع الآخر مع العالم الخارجي يمر بنسبة كبيرة عبر وسائط إعلام فرنسية وفي مقدمتها التلفزيون والسينما وشبكات التواصل الاجتماعي".

إضافة إلى ذلك يذكر براشد "أن أكبر جالية جزائرية في الخارج موجودة في فرنسا، وفيها جزء معتبر من النخبة.

تشكل اللسانيات حقلاً دراسياً مرتبطاً ومؤثراً بمجمل المنظومة المعرفية في الثقافة، إنما يمكن الحديث عن ندرة في الدراسات اللسانية العربية وخصوصاً تلك التي يمكن أن تستفيد من المناهج المعرفية الحديثة. في هذا السياق يأتي عمل الباحث في اللغة مهدي براشد الذي عبرت اهتماماته وأبحاثه عن ولع عميق باللسان الجزائري يبحث فيه منذ سنوات عديدة، خاصة ما تعلق بمعانيه ومتداداته ونقائضه وعلاقته بفضاء المكان والزمان من حيث تطور اللهجة الجزائرية، وقد أثمر هذا الجهد صدور أول معجم يعنى بهذا المجال عنوانه "معجم العامية الجزائرية بلسان عربي مبين"، وفيه كشف عن أمور عديدة تتعلق بهذه اللهجة خاصة من ناحية أنثروبولوجية واجتماعية وسياسية وثقافية.

المبنياء إلى داخل المدينة، بدليل أن شعراء شعبيين من 'زواير'، على ما نعرف عن هؤلاء ارتباطهم بلغة المتلقي في نظلمهم، لا نجد في قضاؤهم الفاظاً من هذه اللغة المفترضة".

ومن أمثلة ذلك يقول براشد "الشاعر الشيخ محمد بن إسماعيل صاحب قصيدة (الفراق) التي غناها الحاج امحمد العنقي، هذا الشاعر (1870-1820)، له قصائد كثيرة في مدح الأولياء الصالحين، وعلى رأسهم الولي الصالح الذي تنسب الجزائر العاصمة إليه سيدي عبدالرحمن الثعالبي، شارك في التحالف العثماني الفرنسي البريطاني والإيطالي ضد الإمبراطورية الروسية في حرب القرم (1853-1858). وقد أقر له العلامة الدكتور محمد بن شنب مقلًا مطولاً في 'المجلة الأفريقية'، لا نجد لفظة واحدة من هذه اللغة الفرانكا.

وهناك شاعر آخر هو مصطفى بن محمد الكبايطي، شاعر من 'زواير' أيضاً عمل مدرساً في مساجد الجزائر (العاصمة)، ثم تولى التدريس في الجامع الأعظم (1824)، ثم ولاة الداوي حسين باشا القضاء على المذهب المالكي (1827)، ناهض الاحتلال من خلال معارضته ضم الأوقاف الإسلامية إلى أملاك الدولة الفرنسية، ونضاله للإبقاء على تعلم القرآن الكريم، وإصداره فتوى تحريم الهجرة هروباً من الاحتلال، فسجن ثم نفي إلى الإسكندرية. لن نجد في شعره لفظة من قاموس اللغة الفرانكا. اعتقد أن الأمر، في هذه اللغة الأثوية، يتعلق بمسألة افتراض لا أكثر".

ويستنتج الباحث براشد أن "العاصمة لم تفرس أيام الاستعمار الفرنسي الذي عجز، على مدى 130 سنة، عن إدخال لغته إلى البيت الجزائري والحق الجزائري، واستطاع الاستقلال أن يفعل ذلك ببراعة في أقل من 50 سنة. مسألة اللغة بصفتها أحد أهم مكونات الهوية بالنسبة إلى أي شعب، كانت ومازالت مظهراً وحقلًا للجدل الدوغمائي والانفعالي، إلا أنها في الجزائر كانت موضوع تنازع عاطفي بشكل فج".

ويرجع مسألة التجاذب والجدل القائم بين العامية الجزائرية واللغة الفرنسية إلى "فريقيين أيديولوجيين: معرب متطرف بفعل التوجه الناصري الذي أراد أن يلحق الجزائر، في انتماها الثقافي واللغوي أيضاً بالقومية العربية على منسبة المشرق العربي ورؤيته، وبالتالي احتقار

العامية الجزائرية أو على الأقل جعلها وسيلة اتصال لا ترقى للتعبير عن الهوية الثقافية للجزائر، كما هي اللغة العربية الفصحى (اللغة الرسمية)، بل واعتبر الاهتمام بالعامية اكتسباً من الداعي إلى العربية باعتبارها مقوماً أساسياً من مقومات الشعب الجزائري.

ومفريس متطرف كذلك يعتقد اعتقاداً في أن العربية لغة تخلف، وأن الفرنسية 'غنيمة الحرب' الوصف الذي وجد فيه درقا جيداً للاختباء وراءه، هي لغة التطور، وعمل جاهداً على الاهتمام بالعامية، ولكن من باب أنها لا تمت بأي صلة للعربية، مستنداً في ذلك، عن بيعة أو جهل إلى أكتوية ما يعرف بـ'اللغة الفرانكا' (LINGUA FRANCA) هذا الهمجين اللغوي الذي عرفته مراقي حوض البحر المتوسط خلال القرن الـ16 والـ17 والـ18 بفعل تطور وتوسع القرصنة فيه".

اللسان الجزائري

جرنا الحديث مع الباحث براشد إلى سؤال هام ومفصلي حول علاقة اللهجة العامية الجزائرية باللغة العربية ولماذا



أبو بكر زمال كاتب جزائري

في هذا اللقاء يعود الباحث مهدي إلى العديد من القضايا المرتبطة باللهجة العامية الجزائرية وارتباطها باللغة العربية، ويميط اللثام عن خلو هذه اللهجة من تأثيرات اللغة الفرنسية مثلما يتم الترويج له، ويقدم رأيه في لغة الحراك ودور النخب في العناية ودراسة واقع ما أفرزه الحراك خاصة الشعارات اللغوية والثقافية.

مهدي براشد مهدي من مواليد حي القصبة بالجزائر العاصمة في 1965، درس الأدب العربي، يشتغل حالياً محرراً صحافياً.

انصب اهتمامه على التراث الشعبي والشعبي المغربي عموماً وتراث العاصمة الجزائرية. بعد ماجستير في الأدب الشعبي حول "الوشم في قصائد (الحجام) في المغرب". صدر له منذ سنوات قاموس حول العامية السائدة في الجزائر العاصمة بعنوان "معجم العامية الجزائرية بلسان عربي مبين".

كتب سيرة لفنان الموسيقى والغناء الشعبين الراحل عمر الزاهي. وله تحت الإعداد "العرس الشعبي والطقس".

توجه السلطة في الجزائر إلى استبدال اللغة الفرنسية باللغة الإنكليزية جاء في ظرف سياسي تعيشه الجزائر منذ 22 فبراير 2019، وهو يخضع لاعتبارات سياسية

لكي تفهم كيف يتكلم الجزائري؟ وبأي لغة؟ ما عليك إلا أن تستفسر الباحث في التراث الشعبي الشفهي مهدي براشد صاحب معجم مهم صدر منذ سنوات بعنوان "معجم العامية الجزائرية بلسان عربي مبين"، والذي بين فيه كما يقول، أن "العامية الدزيرية محصلة لعدة عاميات جزائرية تشكلت بفعل توافد الجزائريين على العاصمة 'زواير' التي كانت حاضرة وعاصمة استقطبت الجزائريين من مختلف القبائل والمدينة وجيجل وبسكرة ومليانة وغيرها من المناطق الجزائرية الأخرى، عبر العصور. لذلك كان إصراري على أن يكون العنوان الثانوي للقاموس 'بلسان جزائري مبين'. مقام العامية الدزيرية بين العاميات الجزائرية الأخرى شبيه بمقام لغة قريش التي نزل بها القرآن، بلسان عربي مبين، بين لغات القبائل العربية الأخرى".

مغالطات وأكاذيب تاريخية

في محيط العائلة يقول براشد عن سؤال يتعلق بمدى تأثير اللغة الفرنسية على اللهجة الجزائرية إن "استعمالهم للقاموس الفرنسي لم يتعلق، إلا بأشياء لا معادل لفظي لها في لهجتنا. اللفظة الفرنسية تأتي في آخر الترتيب بعد العربية والأمازيغية والتركية والفارسية والإسبانية والإيطالية واليونانية والمالطية"، وبلغة تصر على النحدي يضيف "أن العامية الدزيرية إلى غاية السبعينات كانت تحتوي على 10 بالمئة على أكثر تقدير من الألفاظ الفرنسية، حتى الألفاظ التي تعتقد أنها فرنسية إنما هي ألفاظ إسبانية أو إيطالية أو يونانية".

فحتى الذين يقولون بـ'اطروحة اللغة الفرانكا' (LA LINGUA FRANCA) لا يستطيعون أن يأتوا بدليل واحد على أن هذه اللغة الفرانكا تجاوزت حدود